الذاكرة الشعبية

قراءة اجتماعية لمصادر الوعي التاريخي المحلي والمنتج الثقافي في الحياة اليومية للمجتمع السعودي

د. عبدالرحمن بن عبدالله الشقير

ابن النديم للنشر والتوزيع

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

د. عبدالرحمن بن عبدالله الشقير

الذاكرة الشعبية

الجسد بوصفه منتجاً ثقافياً

من الصحة إلى الجمال... إلى الهوية الذاتية

تحتفظ الذاكرة الشعبية بمخزون لغوي ومنتج أدبي عن أجزاء الجسد؛ حيث تضفي معاني الكرامة في الأنف، والجمال في الشعر والأسنان والعيون، والعز في الطول. ويتداول الناس عبارات التكريم مرتبطة بأجزاء من الجسد، مثل: على راسي، من عيوني، على خشمي، في قلبي...، وتخضع هذه المعاني للتحولات في ثقافة العصر الذي ينتج معانيه عن الجسد.

الجسد بوصفه ظاهرة اجتماعية

كان للجسد وظيفتان اجتماعيتان:

الأولى: أن الإنسان العادي في المجتمع التقليدي كان يتولى إدارة جسده بعفوية وفق ما تفرضه عليه الظروف والعادات، ومن أبرزها أن أعمال المزرعة والرعي والمنزل تعتمد على أحد أفراد الأسرة ذكوراً وإناثاً، ولذلك فهم دائمو الحركة، وانعكس هذا إيجابياً على سلامة صحتهم من بعض أمراض العصر، مثل: السمنة، وزيادة الكوليسترول، والسكر، وارتفاع الضغط، وفي المقابل كانت الأمراض البسيطة تفتك بهم أو تبقي آثاراً بالجسد مثل آثار الجدري. كما كان بناء الجسد غير متكامل، وإنما تبرز بعض عضلات الجسد بشكل غير متناسق غالباً. وكثير من الناس في المجتمع التقليدي لا يهتمون بالمظهر الاستهلاكي؛ أي لا يهتم بلبس الزينة، بقدر اهتمامه بتجاوز ضغوط الحياة الاقتصادية.

الثانية: أن المجتمع يمنح قيمة جمالية عالية لقيم الطول وتناسق الجسد، ويعدونها من أدوات الهيبة الاجتماعية، وفي الأمثال الشعبية: «الطول عزّ»، ويقول ابن لعبون:

والا فراعي نجد من قابله هاب مصقول مثل السيف ما ينلعب به

لذلك يحافظ الإنسان على جماليات جسده، أو يستثمر فيها إذا كانت تناسب معايير المجتمع، بوصفها رأس مال اجتماعي.

وتشير «موسوعة علم الاجتماع» إلى أن دراسات الجسد دخلت إلى علم الاجتماع متأخرة، وبدأت بجهود ميشيل فوكو، وتسعى دراسات الجسد إلى دراسة الناس وتحليلهم بوصفهم أشخاصاً متجسدين في أجسام، وليسوا مجرد أفراد لهم قيم واتجاهات؛ لذلك اهتموا بالتعرف على المعاني الثقافية المتباينة المرتبطة بالأجساد، وأساليب ضبطها، ومن أبرز موضوعات دراسات الجسد في علم الاجتماع: الصحة، والمرض، والرقص، والرياضة. كما برزت الاهتمامات مؤخراً بظاهرة تجميل أجزاء من الجسد من خلال التدخل الطبي.

إن كلّاً من الذاكرة الشعبية سابقاً والوعي بالحياة الآن يؤكد على وجود أجزاء معينة من الجسد تحمل معها قيماً اجتماعية واقتصادية كثيرة، مثل: الأنف والشعر والطول والأسنان ولون الجلد والعين...، وهي رأس مال ثقافي قد يتحول إلى رأس مال اجتماعي في حال إذا ما استثمر فيه الإنسان.

التحولات الثقافية في الصحة والجمال

ترتبط التحولات الصحية بالثقافة الشعبية وبالقيم الاجتماعية بشكل كبير؛ إذ يلحظ أن فترة الثمانينيات الميلادية كانت السيادة في المستشفيات لعيادات الباطنية، نظراً لتعرض المجتمع لطفرة اقتصادية كبيرة ومفاجئة، فزادت ظاهرة انتشار اللحوم والأرز في وجبتي الغداء والعشاء، مع وفرة السيارات للتنقل، وهو الأمر الذي حُرم منه جيل الآباء والأجداد، فزادت معها أمراض الباطنية،

وكثرت عياداتها في المستشفيات، وانتشرت كعيادات خاصة في الشوارع الرئيسة. وبعد ما زاد الوعي الصحي بالتوازن الغذائي وتنوعه وإضافة الفواكه والخضار للسفرة؛ قل احتياج الناس إليها، وأغلقت كثير من عيادات الباطنية، وقلص عددها في المستشفيات.

وتوسعت مفاهيم الجمال وتغير كثير من معانيه في فترة التسعينيات الميلادية، إذ برزت ظاهرة جماليات الجلد، بعد أن كان تخصصاً معنيّاً بالحروق وبعلاج الحساسية والألم، ثم انتشرت فكرة أن الجلد يمكن تجميله بالشدّ، وبالعمليات الصغيرة، والتنعيم المستمر بأنواع الكريمات الكثيفة، وبالوشم على الجسد، وما تزال الحاجة لعيادات الجلدية مستمرة ومزدهرة. وتؤكد التحولات حول الجسد أنه ظاهرة اجتماعية تخضع للثقافة السائدة حول الجسد أو أحد أجزائه في زمن محدد ومجتمع معين، وتخضع سرعة التحولات الثقافية لعناصر كثيرة كالاقتصاد، ومتابعة «الموضة الثقافية»، والتعرض لوسائل التواصل والأفلام، ومحاكاة المشاهير.

الأسنان كمنتج ثقافي

في فترة الألفين الميلادية وما بعدها برزت ظاهرة جماليات الأسنان، واستهدفت جميع فئات المجتمع العمرية، وطبقاته الاقتصادية والجندرية، وهذا أتاح لها أن تكون فكرة لن تندثر على المدى القصير، ولارتباطها بالعولمة والوعي الشعبي؛ لذلك ظهرت كليات الأسنان المتخصصة لتلبي حاجة السوق، وظهرت سلسلة عيادات للطبقات الوسطى والفقيرة، وعيادات للنخب. وسوف نحلل قصة حياة السن وتحولات موقف المجتمع منه، وسوف تتبعه مقالات أخرى عن المعاني الشعبية للجسد وأجزائه.

الأسنان في التاريخ القديم

للأسنان تاريخ عريق متجذر في ذاكرة جميع الحضارات القديمة، وقد كشفت البحوث الأثرية عن استخدامات الأسنان في التجميل والعلاج والسحر

منذ آلاف السنين عند الحضارات السومرية والآشورية والفرعونية واليونانية والهندية والعربية، ويعد الفكان من أهم المعثورات الأثرية لبقايا الإنسان القديم، ومن أبرز محددات الحقب الزمنية للبشرية، لمحافظتها على شكلها وعدم تآكلها عبر القرون، والأسنان الآن تعد أحد مؤشرات التحولات الاجتماعية وعولمة المجتمع.

وقد اهتم علماء الاجتماع والأنثربولوجيا بالأسنان، بوصفها ظاهرة اجتماعية لها تأثير في تشكيل الهوية الذاتية، ولها تأثير مباشر في ترك صورة ذهنية لدى الآخرين، ومن المؤلفات الاجتماعية الخاصة بالأسنان كتاب: «أنثربولوجيا الأسنان: الأسنان البشرية من منظور بيوثقافي» (2009م) لمصطفى عوض إبراهيم.

المعنى الشعبي للصحة والجمال

الناس هي مَن تمنح الأشياء قيمتها الجمالية، وتضفي عليها معانيها الاجتماعية، ومن ثم تحدد قيمة الشيء بحسب قوة المعنى الذي يحمله، فالأسنان لم يكن لها معنى جمالي بين الأجيال السابقة، إلا في حدود ضيقة، ومن المألوف وجود أسنان مخلوعة أو نخرها السوس أو غير متراصة أو صفراء...، وبالتالي انخفضت قيمة طب الأسنان في المجتمع، بل إن طبابة الأسنان تكاد تقتصر على خلع الأسنان، وتمارس أحياناً في الأسواق والشوارع، وتظهر صور بعض الرحالة للرياض قديماً حالات خلع أسنان في الشارع، وقد يقوم بهذه المهمة الحجّام. وفي السنوات الأخيرة منح المجتمع معاني صحية وجمالية ووجاهية كبيرة للأسنان، وذلك بضغط من المؤسسة الطبية، وإعلان الأطباء، والتوعية الصحية بأهمية المحافظة على صحة الأسنان وجمالها ونظافتها وكشف حجم علاقتها بالأمراض؛ ومن ثم ارتفعت قيمة مضامين الأسنان اجتماعياً. والشَّعر أيضاً كان جماله متركزاً على الشعر الطويل الأسود، ثم صارت ثورة قيمية بتأثير من شركات التسويق وتطور التقنية ووسائل التواصل،

فرضت جميع الأطوال والألوان، وفُتح المجال لسوق اقتصادية وتسويقية ضخمة. ومن هنا تبرز أهمية رصد التحولات الاجتماعية من خلال تغير القيم ورؤية الحياة عبر الأجيال.

لجمال الأسنان علاقة كبيرة بالوعي الصحي، والتغير الدلالي لجماليات الأشياء في المجتمع، وهي تصلح لأن تكون مؤشراً على تحسن جودة الحياة، ورؤية الإنسان للعالم من حوله، ويمكن قياس التحولات الاجتماعية من التحولات في التفاعل مع الأسنان. وإذا كان للجسد لغة فإن لغة الأسنان تمثل أهم أشكال التواصل الاجتماعي بين الغرباء، وهي التي تترك الانطباع الأولي عن مستوى الصحة والنظافة.

وتغيرت القيم الاجتماعية تجاه الأسنان بسبب الرفاهة الاقتصادية، وزيادة الوعي الصحي، وارتفاع مستوى التعليم، والرغبة في حسن تقديم الذات في الحياة اليومية، فصار الناس ينظرون للأسنان بوصفها هوية الإنسان، ومن أهم أسس تقديم الذات في الحياة اليومية، وازدهرت عيادات الأسنان المزودة بالأجهزة الحديثة بسبب التحولات في رؤية الحياة.

الأسنان في قيم الصحة والمرض

كان للأسنان في الذاكرة الشعبية وظيفة عملية وليست جمالية، وخاصة بالنسبة للذكور، أي أنها تستخدم لأغراض الأكل والشرب وقطع الأشياء الخفيفة، وتستخدم أحياناً كسلاح للعض في حالات الشجار، ولهذا يكثر استخدام مصطلح الضرس قبل أن يشيع مصطلح السن ليعبر عن جميع الأسنان، ويقال في الأمثال الشعبية «لا هم إلا هم العرس، ولا وجع إلا وجع الضرس»؛ لأن آلام التسوس أو نزع السن لا تخدير فيها، ويقال: «فلان ضرس»، لمن يأكل بشراهة، ثم توسع المفهوم ليشمل الأقوياء. ويبدو أن استبدال المصطلح من ضرس إلى سن يعود لأسباب جمالية، لارتباط مصطلح الضرس بالمجتمع التقليدي وأمراض الفم وعدم العناية به، في حين أن مصطلح السن خفيف النطق، وليس له صورة ذهنية مسبقة، فسهَّل تقبل عيادات الأسنان ومبادراتها

التجميلية، إضافة إلى أن الضروس جزء من كل، في حين أن الأسنان تطلق على المجموعة المكونة من الضروس والضواحك والأنياب.

وعلى الرغم من وقوع الأسنان في جماليات الصورة الذهنية فإنه لا يوجد تقنيات لتنظيفها غير السواك والماء، وفي حال تعرض الأسنان للألم الخفيف تعالج بوضع قليل من القرنفل المطحون (ويسمى العويدي والمسمار) على مكان الألم بوصفه مخدرا طبيعيًّا، وتخلع في الحالات المتقدمة. ونظراً لعدم وجود أي قيمة اجتماعية للأسنان عند الطبقات الشعبية، فقد انتشرت أمراض الأسنان واللثة كالتسوس ونزف اللثة، وكثر خلع الأسنان وترك مكانها خالياً.

ولعمليات خلع الأسنان في مجتمعنا حكايات تروى، فإذا كانت ستجرى في المنزل لإزالة الأسنان اللبنية للأطفال الذين تأخر سقوطها، فإن المعالج، وغالباً ما يكون الأب، يربط السن بطرف خيط دقيق ويربط الطرف الثاني بمقبض الباب، ثم يقوم بإغلاق الباب بقوة فيجذب معه السن، أما المتطبب فعادة ما يكون لديه أدوات حديدية تشبه الزرادية معدة لقبض السن بقوة ثم سحبه، وبطبيعة الحال فإن أغلب عمليات خلع الأسنان تتم في الشارع، ولا تسأل عن التعقيم والتخدير، لذلك خرج جيل معوج الأسنان.

جماليات الأسنان في التراث الشعبي

وفي مرحلة الحداثة في المملكة بدأ ينظر المجتمع إلى جماليات الأسنان، وأنها جزء من شخصية الإنسان، وصار السن الذهب والبلاتين من علامات الجمال في المجتمع، ويدل على أناقة صاحبه وقدرته المالية، وفي فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم مسائل كثيرة عن حكم لبس سن الذهب ومسألة واحدة عن سن البلاتين، سواء للرجال أو للنساء. وقد أفتى الشيخ ابن عثيمين بعدم جواز لبس سن الذهب للزينة بالنسبة للرجال، وأجاز لبسه للزينة للنساء؛ لأن من عادتهن التزين بتحلية الأسنان بالذهب، وأفتى بخلع سن الذهب من الميت لأن ملكه انتقل للورثة. وأفتى ابن باز بجواز سن الذهب للنساء لكنه حرم التفليج للزينة،

والتفليج كان من عمليات التجميل قديماً، وهو إحداث فتحة بين السنين الأماميين. ويبدو أن سن الذهب كان يحمي اللثة من الالتهابات أكثر من أي عنصر آخر، وليس جماليا فقط.

واشتهر سن الذهب بين الفتيات ذوات البشرة السمراء، بوصفه من محددات جماليات الجسد، ورد ذلك في أغنية قديمة للفنان البحريني محمد راشد الرفاعي يقول فيها:

أسمر وبه سن الذهب مملوح زوله إذا شفته يسليني

وتعد الأسنان من أبرز مكامن جمال المرأة التي يتغزل ببياضها ومصفوفتها الشاعر العربي قديماً وحديثاً.

معجم عيادة الأسنان التراثية

نظراً لمحدودية أمراض الأسنان في جيل الآباء والأجداد، فقد كان المعجم القاموسي محدوداً أيضاً، وقد جمعت من بعض كتب التراث الشعبي مثل كتاب: «تراث الأجداد» للقويعي، وكتاب: «معجم الكلمات الشعبية» للمانع، مفردات قليلة، ولكن أكثرها ما يزال مختزلاً في الذاكرة الشعبية للرواة وكبار السن.

من مسميات أمراض الأسنان المعروفة في التراث الشعبي مثل: «مِخرِث»: أي متآكل، وتقال للضرس إذا نخره السوس، وللخشب إذا أكلته الأرضة.

ومن أبرز معدات عيادة الأسنان آلة «الجاز»، وتسمى «القاز»، وهي مقص من حديد، له شكلان، وتشبه هذه الآلة الزرادية، وتستخدام واحدة منها لخلع الأسنان الخلفية (الضروس)، والأخرى لخلع الأسنان الأمامية، وقد جاء مصطلح «الجاز» في الشعر الشعبي، يقول عبيد الرشيد:

وان كان لك ضرس مقزيك منخور فحنا لكم جاز وللضرس خلاع

الأسنان في السوق الاقتصادية

ربما أسهمت ممارسات المؤسسة الطبية (دعايات العيادات وشركات الأجهزة الطبية، واستخدام المشاهير في الترويج لابتسامة جاذبة) ضغوطاً على أصحاب الأسنان المعيبة والمكسورة والضعيفة والصبغية، بل العادية أيضاً، لحثهم على تجميل أسنانهم وحمايتها. واستطاعت أن تجعل من المجتمع معملاً ضخماً لترميم الأسنان وإصلاحها بالتلبيس والتلميع والزراعة، بعد أن كان الإنسان يكفيه أن يعيش بحشوات الأسنان أو خلعها. وقد ساعد على تسهيل مهمة المؤسسة الطبية قدرة الإعلام، وضغط الدعايات، وتقديم المشاهير والطبقات الاجتماعية العليا بوصفهم النموذج المثالي الذي ينبغي أن تكون عليه الأسنان، ومن ثم تشكل خطاباً طبياً قوياً يثبت أن الأسنان جزء من هوية الإنسان وأحد أهم مكملات جماليات الجسد، حتى تحول هذا الرأي إلى حقيقة لا تقبل الجدل، وهذا فتح المجال واسعاً لابتكار أسواقٍ اقتصادية تقاس بمليارات الريالات سنوياً، تتمثل في انتشار عيادات الأسنان المتخصصة، بعد أن كانت عبارة عن عيادات علاجية داخل مستوصفات، وافتتاح كليات لطب الأسنان، وإحداث آلاف الوظائف للكوادر الطبية والإدارية في كل مجتمع. وقد أسهم ذلك في ازدهار صناعة تجميل الأسنان وتقنيات علاجها.

يمكن القول بأن الأسنان أصبحت الآن اللوحة الفنية التي يعرضها الشخص على مدار الساعة في حياته اليومية، بل إن الأسنان صارت أحد أبرز مؤشرات مكانة الشخص الاجتماعية والاقتصادية، وتقبل الناس له صار معلقاً بجمال أسنانه، وذلك بسبب ضغط شركات تسويق الابتسامة الجميلة، وتطور خدمات إصلاح الأسنان وتجميلها، ولأن الأسنان هي أبرز جزء بالوجه تقع العين عليه، ولما للفم عموماً من دور في إبداء المشاعر بالانتسامة أو ملامح الجدية والغضب...